جائحة كورونا والقيم الإنسانية: دراسة في المجال الفلسفي

د. محمود محمد المهدي العبيدي

أستاذ مشارك بقسم الفلسفة

كلية الآداب / جامعة بنغازي

المستخلص:

تعد القيم من الإشكاليات المعاصرة بسبب ما تمر به البشرية من نوازل وكوارث من بينها جائحة كورونا، التي جعلت البشرية في موقف حرج، بسبب بعض التصرفات تجاه مقاومة المرض، حيث اختلطت الأمور في ذهنية البشر حول ما يجب فعله وما يجب تركه، بجانب خطاب التهويل والترهيب الإعلامي الذي واكب هذه الجائحة، فجاء هذا البحث لمناقشة الأثر القيمي للوباء العابر للحدود، وهو بمثابة استرشاد توعوي بأهمية المجال الفلسفي في مثل هذه النوازل الكونية، وكيف يعمل هذا المجال على ترسيخ التمسك بالقيم الإنسانية، وتعزيز الأخلاق المهنية، لا سيما في الجانب الطبي، أن الدعوة إلى تثبيت القيم والإشارة إليها في زمن قدس فيه الإنسان الماديات وابتعد عن احترام قيمة المعنويات شيء في غاية الأهمية.

أن عملية توكيد القيم الإنسانية والحث والتبصير بها لمقاومة بعض السلوكيات السلبية التي تمارس في المجال الطبي ستسهم في الحفاظ على القيمة الوجودية للإنسان، أننا نحاول أن نستخلص موقف المجال الفلسفي إزاء هذا العالم المضطرب بالأحداث والثورات العلمية ذات الصلة بقيمة الإنسان، فمسألة الإشارة إلى القيم الإنسانية ذات قيمة في تحديد مسار الأخلاق الطبية أمام التصاعد المستمر والسريع في مجال الطب والبيولوجية، فالتطور الحاصل في هذا المجال العلمي هدّد القيم، وسبّب بعض الاضطرابات حول معرفة مقاييسها، ومستوياتها، ومدى مصداقيتها، ولهذا هناك مشاكل متعلقة بالجانب الأخلاقي الذي يجب علينا الإشارة إليه، والعمل على ضرورة التأكيد على الالتزام بالمبادئ والقيم الإنسانية التي حددتها البشرية عبر مواثيق دينية وقانونية مختلفة.

الكلمات الافتتاحية: الكورونا، المجال، التهويل، القيم.

المقدمة:

يعمل المجال الفلسفيّ بشكل دائم على فتح آفاق البحث، والسؤال، والنقد، والتحليل في شتّى المجالات التّطبيقية والإنسانية، ولم يعد حبيس البحث فيما وراء الميتافيزيقا؛ بل أصبح يمارس آلياته ومناهجه القائمة على المنطق والبراهين، وتقييم نتائج بعض النظريات ونقدها، وأصبحت عملية تقييم النتائج العلمية المستجدة في السّاحة الدّولية، من مهام هذا المجال، ومنطلق ذلك تأكيده على أنّ سلامة العمل لا تكون إلا بالارتقاء بمستوى التفكير، واستخدام المنهج السليم لإنجاح أي نشاط بحثي؛ وذلك لتوفير بيئة صحية آمنة للإنسان ليعيش فيها حياة فاضلة، ويرسم لنفسه حدودًا أخلاقيةً تلجم تنمر بعض التصرفات غير الأخلاقية.

جاء هذا البحث للإشارة إلى إشكالية القيم في زمن جائحة كورونا، ومعرفة إنْ كان هناك دور توعوي فاعل للمجال الفلسفي، وهل له دور في توكيد القيم الإنسانية والحث والتبصير بها؟؛ لمقاومة بعض السلوك السلبيّ الذي يُمارس في المجال الطبي وكذلك في المجال الاجتماعي، وهنا نستخلص موقف المجال الفلسفي إزاء هذا العالم المضطرب بالأحداث والثورات العلمية ذات الصلة بقيمة الإنسان، فمسألة الإشارة إلى القيم الإنسانية ذات قيمة وجودة في تحديد مسار الأخلاق الطبية أمام التصاعد المستمر والسريع في مجال الطب والبيولوجية، فالتطور الحاصل في هذا المجال العلمي هدّد القيم، وسبّب بعض الاضطرابات حول معرفة مقاييسها، ومستوياتها، ومدى مصداقيتها، ولهذا هناك مشاكل متعلقة بالجانب الأخلاقي الذي يجب علينا الإشارة إليه، والعمل على ضرورة التأكيد على الالتزام بالمبادئ والقيم الإنسانية التي حددتها البشرية عبر مواثيق دينية وقانونية مختلفة، حتى تحظى كل التجارب في مجال الطب والبيولوجية بالقبول وعدم الرفض من قبل الإنسان، الذي عاش في رعب وخوف مما يحدث في دهليز المختبرات البيولوجية.

أهمية الموضوع:

– المتتبع لما هو حصل اليوم في مجتمعاتنا يجد نفسه يمر بمرحلة جديدة من مراحل تطور الأمراض وعلاجاتها وما يرتبط بها من توظيف لبعض الفيروسات العلاجية وتحويرها للاستفادة منها للحد من انتشار بعض الأمراض، وهنا مكمن الخطورة من هذه التدخلات البشرية والخوف من تأثريتها السلبية على الكائنات الحية والبيئة، وتأتي أهمية هذا البحث في الإشارة إلى ضرورة التمسك بالضوابط الأخلاقية داخل المختبرات الطبية.

– الاحترازات الوقائية من جائحة كورونا، حدة من طبيعة الاتصالات المكانية والجسدية لمقاومة انتشار المرض أو الحد منه، فهذا الحد له علاقة بقيمة الاتصال والحرص على الوقاية، وهذا الحد الاحترازي يؤثر في انحصار قيم وظهور قيم جديدة، ولهذا يهتم البحث بالتنبيه إلى طبيعة القيم المتغيرة، فالفكر الإنساني بات اليوم في مواجهة تحديات جديدة ذات صلة بقيمة الإنسان الوجودية، الأمر الذي جعله في حيرة و مأزق إنساني بسبب تحديد الاصلح ونبذ ما هو دون ذلك، فالقيم في عصرنا أخضعت لسياسة الانتقاء والتفضيل، الأمر الذي يجعلها ويؤطرها من ضمن إشكاليات العصر.

– تظل مسألة الحديث عن القيم في ظل جائحة كورونا من المسائل الهامة في عصرنا الحاضر، حيث أن القيم تكمن أهميتها في تحقيق التوازن النفسي للإنسان وسط بيئته الاجتماعية، و الدينية، والاقتصادية، والسياسة، والطبية، فعندما يتم فقدان القيم الطبية على سبيل المثال سيؤدي ذلك إلى انهيار التوازن النفسي وما يصاحبه من توتر وقلق وخوف وذهول، ولهذا جاء هذا البحث لبيان دور فلسفة القيم والأخلاق في تحديد طبيعة القيم والأخلاق الايجابية، وما هو مباح إنسانياً في الممارسات الحياتية فالجميع في حاجة ماسة في تعامله اليومي إلى نسق من القيم يعمل على توجيه الأفكار و السلوك والتصرفات ، فاذا غابت القيم عند الطبيب والمزارع والصانع والمعلم...إلخ أو تضاربت حينها يصبح في اغتراب عن ذاته، وعن مهنته، فنحن جميعاً في حاجة إلى نسق قيمي يحد من التصرفات اللاإنسانية في أي مجال من المجالات، وهنا يلعب المجال الفلسفي دوره في تثبيت القيم الإنسانية، والحد من انتشار الاهواء، وتوجيه الفكر نحو ما هو أفضل للإنسان والطبيعة.

أهداف الموضوع:

– يسعي هذا البحث لبيان ارتباط القيم بجل التخصصات، وبأن القيم تعزز الوجود الإنساني وتعطيه معنى وتميزه عن غيره، والمجال الفلسفي يعنى بتحديد القيم وتعزيزها، فكما أن المؤسسات الطبية هي الرحم الذي تتخلق فيه سبل الشفاء، فالمجال الفلسفي هو من يعطي ملامح القيم ويحدد طبيعتها.

– نعمل من خلال بحثنا على التذكير بإنسانية المجتمع الطبي، وما يحمله من قيم دافعة لتحقيق بيئة صحية لكل مريض أو العكس، كما أن البحث يبين دور الوعي بمسألة قيمة الأفعال الإجرائية تحت وطأة جائحة كورونا، وما يتبعها من أثر إيجابي أو سلبي يمس الإنسان باعتباره القيمة الوجودية السامية.

– نحاول التبصير بالدور المناط بالمجال الفلسفي في ترسيخ القيم، والحفاظ على القيم الإنسانية في الحياة اليومية، و في تغيب أهمية هذا المجال تجهيل المجتمع بطبيعة الفلسفة الأخلاقية.

– بيان ضرورة التخفيف من الخطاب المرسل للمواطنين في زمن النوازل والكوارث، وعدم استخدام خطاب التهويل الذي يزعزع النفس ويربكها، ولا يحافظ على قيمة الاستقرار النفسي لدي الناس.

حدود الموضوع

بيان الأثر القيمي لجائحة كورونا، واظهار طبيعة المجال الفلسفي في تعزيز القيم الإنسانية.

تغييب ثقافة المجال الفلسفي:

يشخص المجال الفلسفي بكونه مجالا يُعنَى بالفكر الحرّ المنفتح على دراسة الآخر، ويدعو إلى التحرر من قيود الانغلاق، ويقدس ثقافة السؤال، وبنيت أركانه المنهجية على هذه الثقافة، ويعد تغيب هذه الثقافة في مجتمعنا اليوم جريمة في حق هذا المجال، فكما يقول ديكارت: "بأن حضارة الأمة وثقافتها تقاس بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها"(نقلا عن عبدالقادر الجبائي، ماذا حلّ بالفلسفة في العالم العربي؟ (culture.elaph.com) وقد شخص عبد القادر الجبائي في مقالاته الفلسفية قضيّة إهمال ثقافة السؤال، وعزا ذلك القصور إلى السياسات العامة التي تدير شؤون مجتمعاتنا العربية قائلا: "إذا كان للمرء أنْ يقول كلمة هنا، فإنّ إدارة الدفة في الثقافة الفلسفية العربية مازال يقع في منطقة المنعطفات الحرجة، وهذه الثقافة على حاجتها تعاني أيضا من عدم الاكتراث بإنتاج فلسفة، كما أن تلقيها محكوم بظروف ملتبسة".(culture.elaph.com)

إهمال أهمية المجال الفلسفي، في واقعنا المعيش، وعدم معرفة ماهيته، والاستهزاء بمخرجاته، جعلنا نؤيد فكرة الاحتفال باليوم العالمي للفلسفة، الذي أعلن من قبل اليونسكو للتعريف بها، وعدم الوقوف عند أبوابها، هذا الاحتفال الذي حدّد "الاحتفال به لأول مرة في ثالث يوم خميس من شهر نوفمبر، الذي وافق يوم 21 في عام 2002م، وفي هذا تأكيد من اليونسكو على القيمة الدائمة للفلسفة؛ لتطوير الفكر البشري".(ar.m.wikipedia.org)

هناك من يعتقد أنّ هذا المجال بعيد عن الواقع، ويدور في فلك الفكر الخيالي، ويعيش في رحاب السفسطة التي لا طائل من ورائها، وليس له صلة بما يحدث من تطورات مختلفة في الساحة العلمية ذات الالتصاق بواقعنا المعيش، وقد أشار رجب بودبوس إلى نظرة المجتمع للفيلسوف قائلا: "إنّه في وسطه الاجتماعي إما محل سخرية أو رثاء، أو محل شك وريبة، ينظر إلى أفكاره إما تهكما وسخرية، أو بلا مبالاة "(رجب بودبوس، ص13)، وهو يربط ذلك بالنظم السياسية القمعية التي تريد شعبًا لا يفكّر ولا يناقش ولا يجادل ولا ينتقد، فمن يبعد الفلسفة ويحاربها هم من يخفون تأثيرها الواقعي، أو يجحدون ماهيتها، لأجل طمسها؛ بسبب جرأة مجالها، فالاعتقاد ببعد هذا المجال عن هموم المجتمع عارٍ عن الصحة؛ لأن هذا الحكم مرتبط بدوافع النظم السياسية التي غرست مفاهيمَ وقيمًا وأفكارًا منافية لحقيقته، فميلاد هذا المجال كان من رحم هذا الواقع ومشكلاته

المختلفة، وقد عمل الفلاسفة على كشف كنه مجالهم التفكري النقدي، بل صاروا يؤكدون على واقعيته، ولو بعد حين، وهذا ما أشار إليه كارل ماركس (1818 –1883 م) قائلاً: "سيأتي يوم تكون فيه الفلسفة في تماس، في علاقة متبادلة مع العالم الواقعي لعصرها، ليس داخليا بمحتواها وحسب، بل خارجيا بتعبيراتها أيضاً".(كارل ماركس، ص22)

ويجب علينا تبيان درجة الصلة بين المجال الفلسفي ومستجدات العصر، فهذا المجال يمتلك آليات، ويكسب من يدخل دائرته مهارات تجعله على درجة لا بأس بها من الدراية والقرب بما يحدث من تطورات علمية في مجال الطب وغيره من المجالات، وبمعرفة هذه الآليات والمهارات القائمة على أسس المنطق والقيم نتجاوز ثقافة الصمت ونتعداها، فمسائل إصلاح ثقافة المجتمع وأخلاقه وقيمه مهمّة من مهام هذا المجال، الذي صار يعوّل عليه في تنمية القدرات العقلية وتطويرها، وتثبيت ثقافة السؤال ومعرفة مقتضياته وكيفية طرحه ومعالجته، والاهتمام بالقيم الإيجابية التي تنهض بالمجتمع (انظر: ميشيل تورزي وآخرين، ص4)، ولهذا يجب أن ندرك حقيقة هذا المجال الذي كان له في العصر الحديث الأثر العظيم في النواحي الثقافية والعلمية في فرنسا وأوروبا في القرن السابع عشر، فلا شك في أنّ المجال الفلسفيّ أسسه قائمة على الفكر التنويري الساعي إلى خلق نموذج إنساني واعٍ وفطن لمجريات الأحداث المتسارعة في الساحة العالمية، فجائحة كورونا –على سبيل المثال لا الحصر– قد ترتب عليها قضايا ذات صلة بالقيم الإنسانية، حيث إنّ طبيعتها تتعلق بسلوك التعامل بين الطبيب ومريضه، والمريض ومحيطه الاجتماعي، إنّ عملية البحث في طبيعة هذه الصلات والعلاقات مهمّة في بيان الأسس الثقافية للمجتمعات الإنسانية، وفيها تأكيد على قيمة الإنسان وكرامته.

يحتم الواقع العلمي علينا تحديد طبيعة المجال الفلسفي، هذا المجال الذي يقع ضمن دائرة العلوم الإنسانية، وهي علوم تركن إلى الجانب النظري أكثر من الجانب التجريبي، وأن خضعت للتجربة، فهي تظل ذات علاقة محصورة في دائرة اختبار بعض العينات الدراسية، وهذا يحدث في مجال الدراسات النفسية والاجتماعية، ويظل المجال الفلسفي بمنآي عن إجراء التجارب المخبرية، فهو يلتزم حدود ذاته المنطقية ولا يتعداها، ولكن ما يميز هذا المجال كونه يحوي كل العلوم التجريبية من خلال نقده للنتائج المترتبة عن التجارب العلمية لعلاقتها بالإنسان والبيئة، فهو يعنى بالممارسات الإنسانية لهذه التجارب في إطارها الحضاري والثقافي، فالعلوم المخبرية يجب لا تتجاوز هذا الأطر، وهذا من منطلق لا يمكن عزل هذه العلوم عن العلوم الإنسانية المهتمة بالقيم

الأخلاقية الناجمة عن هذه التجارب العلمية، التي لا يمكن عزلها عن واقعها الحضاري ومتطلباته، وعلى هذا لا يمكن اجتثاث الأصول والجذور الحضارية للمشروع العلمي في المباحث الإنسانية، لكون السياق الحضاري والثقافي والقيمي رافد لها، إن لم يكن منبعا، وهو ذاته صلب موضوعها ومسرح ظواهرها"(يمنى الخولي، ص 389) ، وفي هذا المحيط يجب أن تلعب العلوم الإنسانية دورها المناط بها، ومن بين هذه العلوم الفلسفة التي تركن إلي الجانب التوعوي بقيمة الوجود الإنساني، لأثبات الهوية، وتأكيد القيم في أي مشروع علمي، وهذا يتطلب الاتفاق بين العلوم التطبيقية والإنسانية في جوهر وحقيقة الفعل الناجم عن الاعمال المخبرية ذات الصلة المباشرة بالبيئة والإنسان والثقافة، وأن حدث هذا الاتفاق يعني ذلك وضع معيار مشترك يصون أهداف العلم ويرسم نحوها حدودا واضحة يتلاقى داخلها الرأي والرأي الآخر.(يمنى الخولي، ص390) فمن مطالب المجال الفلسفي الأمانة، والصدق، والإخلاص في العمل من قبل من يدير المختبرات التجريبية، وهذه المطالب في حقيقتها قيم إنسانية يجب أن يتحلى بها العلماء داخل مختبراتهم، ولهذا يحاول المجال الفلسفي تفاعيل دور القيم الإنسانية، وبث روح التفاؤل بين الناس لخوفهم من النتائج اللاأخلاقية لبعض التجارب، ولا سيما المتعلقة بالاستنساخ وتحوير الجينات، وكذلك الخوف من المزاعم القائلة بأن فيروس كورونا فيروس مخلق في معامل بيولوجية[61]، وأن صح هذا الزعم، فهذا يعني موت القيم والأخلاق، وهذا معناه موت الإنسان، فالمجال الفلسفي يحاول جاهداً غرس قيمة التفاؤل والحب وقيمة الجمال وقيمة الخير في نفوس البشر، ويحاول أن يشير إلي أهمية هذه القيم و دورها في الواقع المعيش، ونبذ قيم الشر والحسد والبغض، وأن استطاع هذا المجال غرس هذه القيم في المجتمعات الإنسانية، فهذا يعني مقاومة تخليق أي فيروس ضار، والحد من مخاطر الشرور الناتجة عن موت القيم الإنسانية.

[61] – هناك كتاب عنوانه " **نهاية الأيام. تنبؤات ونبوءات حول العالم**" صدر عقب انتشار فيروس سارس عام 2003 من تأليف الطبيبة النفسية **سيلفيا بروان** دارت أحداثه حول مرض شديد الخطورة يصيب الجهاز التنفسي للمصاب ويصعب إيجاد علاج لمواجهته ووردت في الكتاب سيناريوهات سيئة ستحدث في حال اجتياح المرض للعالم، فمثل هذه التنبؤات توحي لنا بأن هناك أشياء تحبك حول استحداث حرب بيولوجية لضرب اقتصاديات بعض البلدان ونهوض باقتصاديات بلدان أخرى، وما يعزز ذلك ما أثاره كتاب "**عيون الظلام** "الذي صدر منذ 39 عاما من جدلا واسعا حول ما تضمنته صفحاته عن ظهور هذا الوباء من جراء تطور أعمال بحثية داخل مختبرات بيولوجية. (انظر: https://www.annahar.com)

الارتقاء بمستوى الفهم:

يطمح المجال الفلسفي –بمختلف مشاربه– إلى توعية الفكر الإنساني والارتقاء به؛ من أجل إيجاد قراءة جديدة للأحداث المختلفة على الساحة الدولية، من خلال توسيع آفاق التأويل والتحليل والنقد، وتنبيه إلى أهمية الأزمات، وما يتبعها من انهيار في الأخلاق والقيم، فهذا الزمن الذي نعيشه ارتبط بأزمات متعددة: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وبيئية، ومنها ما ارتبط بالسياسات العلاجية في المجال الطبي، وجميع هذه الأزمات ذات علاقة وطيدة بمسألة القيم الإنسانية، التي يسعى المجال الفلسفي بشكل دائم على تأكيدها، و إظهار أهميتها في الواقع المعيش.

الفلسفة تتعامل بشكل دائم مع نظريات المعرفة؛ لأنها ذات علاقة بجميع نواحي التفكير الإنساني، بما فيها طرائق التفكير وحل المشكلات الناجمة عن وقوع البشرية في أزمات مختلفة، ولهذا نجد الفلسفة تعمل جاهدة على "تقوية شخصية الإنسان وتأهيل ذاته وتهيئته لأن يمارس بفاعلية وصدق ما هو بصدد بحثه أو ما وقع في دائرة اختصاصه"،(فضل الله إسماعيل، ص135) فنحن نعلم بأن ظهور الأزمات يرافقها بالضرورة نشوء فروع معرفية كثيرة، وهي تحمل في جوهرها تبعيض حقيقة الأزمات وتشظيها، والفلسفة تتعهد لإيجاد مفهوم موحد يمتلك القدرة على تركيب المعارف الجزئية في حقيقة قابلة للتأمل والفهم والنقد بكل ما يحمله من احتمالات (انظر ،مايكل زيمرمان، ص9)

ولهذا يجب علينا أعادة النظر في الدور المناط بالفلسفة، ولا سيما ونحن نعيش في أزمة طبية أدت إلى عدة أزمات أهمّها الأزمة الاجتماعية، وسبب ذلك ما أحدثته جائحة كورونا من تفسخ اجتماعي، ارتبط بسلوك احترازي سبّب في البعد الجسدي بين أفراد العائلة الواحدة. إنّ مسألة بيان الحدود والغايات في مثل هذه الأزمات يتطلب وعيًا مجتمعيًّا، وهذا يحتاج إلى تكثف عدة مجالات علمية؛ لتوضيح أبعاد هذه الأزمات، وإيجاد الحلول لها.

وليعي الجميع قيمة المجال الفلسفي في ظل مثل هذه الأزمات يجب أن تكون هناك درجة قبول لهذا المجال في أوساط المجتمع، هذا المجال الذي لا يقدم معرفة جاهزة للتلقين؛ بل له معاييره التي يعمل ويسعى من خلالها وبها إلى ممارسة النقد لأسس كل معرفة نظرية أو عملية،(انظر، موقع الجمعية الفلسفية المغربية، شبكة

المعلومات الدولية) وهذا أحد أسباب النفور من الفلسفة؛ لأنها قائمة على جهد تحليلي يقوم به الذهن بغية الوصول إلى الحقائق، وكذلك لها دور تقيمي لكل سلوك معرفي وفق معايير المنطق العقلي، وهذا ربما ينبذه البعض من أصحاب الإيمان المطلق بالنصوص الدينية، ولاسيما المتشددين منهم، والمحصورين بفهمهم الضيق للنصوص الكتابية.

وبما أنّ المجال الفلسفي يمارس النقد، ويتجرأ على بعض الثوابت الفكرية، فهو لا يستحي من المطالبة بضرورة نقد الجانب القيمي في المجال الطبي، والإشارة إلى أثره على النفس الإنسانية في مثل هذه النوازل المتعلقة بالأوبئة الكونية التي حلت بنا، ومن ضمنها هذ الوباء (كورونا).

وضعت جائحة كورونا الجميع في دائرة حرجة: الأطباء، والساسة، والاقتصاديون، وأهل الدين، بل الناس جميعا. هذه الدائرة التي ضاقت فيها المفاهيم، وانحصرت داخلها القيم، وصار الجميع يعمل ويحاول ويبحث عن إيجاد مخارج، كلٌّ حسب مجاله العلمي، وقد ترتب على ذلك إشكالات علمية وأخلاقية متعلقة بالحياة الواقعية، هذه الحياة التي باتت في أحضان الصدام الأخلاقي أكثر من أي صدام آخر.

رفض سياسة الحياد السلبي والانحياز المنغلق:

سياسة الحياد السلبي في المجال الفلسفي منبوذة؛ لكونها تخلق سياجًا مغلقًا حول تبني بعض الأفكار والتوجهات، فماهية هذا المجال تتخطى حدود الحيادية السلبية، فهو يمارس نشاطه الفكري حسب ما تمليه عليه هذه الماهية، ولو في حدود دائرة ضيقة، يستوعبها من له القدرة على فهم أبعاد المسائل الفلسفية، وما دمنا في هذا البحث نسعى إلى مناقشة مسألة القيم الإنسانية ومدى قدرة المجال الفلسفي على توعية الذهن البشري تجاهها في أزمة كورونا، فهذا يعنى أننا نشير إلى حقها الشرعي تجاه إيقاظ الضمير وتشغيل الذهن وممارسة التحليل والنقد، فهذا الحق أعطاه لها تاريخها الفكري عبر عصورها المختلفة.

فكرة الفضاء المنفتح التي يطرحها المتفكر المغربي عبدالسلام بن عبد العالي هذا الفضاء الذي يدخل في طياته جميع التيارات الفكرية، ويحاول بواسطته خلق مجال تجديدي جاد للفلسفة، فهو يقول: "إذا أردنا أن نقحم الفكر في ميدان تحويل الواقع وتغييره، إذا أردنا ألا يظل تأويلاً، هو أنه كيف ننفصل عن الأفكار بما هي تيارات جارفة".(بن عبد العالي عبد السلام، ص 34) في هذا دعوة إلى إيجاد فلسفة جادة مغايرة، لا تركن إلى

أفكار تيارات فلسفية معينة، وهي دعوة إلى ضرورة الابتعاد عن الحياد السلبي، والبعد عن الانحياز الفكري المنغلق، وعدم التقوقع خلف الإيمان بخصوصيات منغلقة لا يسمح بتجاوزها من قبل تيارات ومجالات فكرية مختلفة، فمسألة الانضمام أو الانتظام تحت تيار أو مذهب أو عائلة فكرية أو خانة جاهزة، فيه نوع من الجمود الفكري والانحياز في التفكير لمعايير هذا التيار أو ذاك.

المجال الفلسفي في فكره يعدّ مجالا ينفرد برؤية ومنهج عن التيارات والمجالات الفكرية الأخرى، عندما يطرح ويتناول مشكلات العصر؛ بل نجده أيضا ينفرد داخل دائرة التيارات الفلسفية ذاتها، وهنا مكمن خصوصيته وحرية فكره، ولهذا لا يتطاول المجال الفلسفي على المجال الطبي أو أي مجال آخر، إلا في حدود المنهج السلوكي المنتمي للأخلاق والقيم، وأيضا في تقييمه لنتائج النظريات العلمية، فعلى سبيل المثال عندما يهمل الأطباء ومن يعمل في علم الأحياء الجانب الأخلاقي في مهنتهم؛ من أجل تحقيق غاية النجاح دون مراعاة للقيم الإنسانية، ولا سيما في مجال الاستنساخ، ومسألة الموت الذي يسمونه بالرحيم الذي طُبّق على مرضى كورونا من كبار السن، في بعض مصحات الدول الأوربية، ودور المسنين في فرنسا دون النظر إلى كون هذه الفئة تمثل قيمة وجودية ذات طابع إنساني(انظر: Adel Dellal ,arabic.euronews.com// :https)، فمسألة القيم والأخلاق تتطلب من المجال الفلسفي التدخل؛ لتحديد طبيعة الأخلاق والقيم، وبيان المهام الواجب التقيّد بها تجاه مقاومة تفسخ الأخلاق عند بعض العلماء والأطباء، فكل ما نحتاجه هو الوعي بقيمة الإنسان أولاً، الذي يحتاج إلى عناية طبية معينة، وإلى لقاحات متعلقة بالحماية والحد من المرض أو علاجه، وهذا من باب الحقوق والواجبات، وهي من المسائل الضرورية في الحفاظ على كرامة البشر باعتبارهم كيانًا وجوديًّا مقدسًا.

قدسية الإنسان وحرمته:

خلقت جائحة كورونا لنا صدامًا وعراكًا مع أنفسنا، ولهذا أصبحنا نبحث عن القوانين والأخلاق والقيم المتعلقة بالنظافة وكرامة الإنسان، ولا سيما في مجتمعنا الإسلامي المؤمن بنص ديني قائم على قيم الإنصاف والعدل والطهارة، فإشكالية العصر التي نعيشها إشكالية تتعلق بقدسية الإنسان وحرمته، هذا الإنسان الذي أصبح في أحضان البعد المادي (انظر: صلاح قنصوة، ص32) في ظل التحولات الكبيرة والخطيرة في مجال الطب وتجاربه البيولوجية، هذا المجال الذي طمست فيه المعالم الإنسانية في كثير من الأحيان، فالمأزق الحقيقي للتقدّم

التقني، ولاسيما في مجال الطب البيولوجي، يتمثل في افتقاد الأخلاق عندما استخدمت التقنية في مجال دراسة الجينات، هذه الدراسة التي تنذر بولادة كائنات هجينة، ولا تكترث بقيمة الإنسان وكرامته، فغايتها تكمن في التحقق من فرضيات التجربة المخبرية أكثر من اهتمامها بأي جانب آخر.

في واقع الأمر إنّ الأخلاقيات الطبية لم تكن مهملة في الجزء الثاني من القرن العشرين وأوائل هذا القرن، فقد اهتمت بالإنسان وقضاياه، وعملت على التشديد على احترامه واستقلاليته، ولكن النوازل والكوارث المتعلقة بالأمراض وإنتاج اللقاحات، وضعت هذه الأخلاقيات تحت المجهر، وسبب ذلك إدراك الإنسان للتهديدات الوبائية التي تهدد قيم المجتمع الإنساني، وأمنه الصحي، وما نجم عنها من صعوبة الحصول على اللقاحات الوقائية أو العلاجية، وهذا ما حدث تماما في جائحة كورونا، فهي تعد أنموذجًا واقعيًّا لطبيعة القيم والأخلاق في المجال الطبي.

تكمن أهمية المجال الفلسفي في الإشارة إلى البعد القيمي لمثل هذه الجائحة، والدعوة للتمسك بأنماط العيش الصحي، المتمثل بالاهتمام بقيمة الإنسان، بوصفه مخلوقًا طاهرًا، فالقضايا المترتبة على تصرفات بعض الأطباء من تهويل الموقف وعدم وضع الحلول، هي قضايا متعلقة بالقيم الإنسانية بالدرجة الأولى قبل كل شيء، فكما يقول عادل العوا: "وفي وسعنا أن نستشف الممارسة القيمية في واقع الحياة بإلقاء نظرات سريعة على أساليب السلوك والعادات التي يتبعها الأفراد، أو تفرضها الجماعات، وهي جملة أنماط التصرف في مختلف شؤون الحياة والفكر".(عادل العوا ، ص9).

جاء هذا من منطلق أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي، لا يعمل بمفرده، ولا يعيش ألا مع الغير، وهو لا يستطيع أن يحقق مصيره إلا في إطار الجماعة (زكريا إبراهيم، ص 160)، فالسلوك الارتجالي من قبل الطبيب تجاه وضع حل لبعض المشكلات المرضية قد يصطدم بقيم المجتمع، فالطبيب فرد من أفراده، فيجب عليه لا يسلك المسالك التي تتعارض مع قيم المجتمع في تعامله مع المريض دون تفكر وتمعن، فالحكم على تصرفات الأطباء حكم في أغلبه أخلاقي، وهذا ما يذهب إليه أبو حامد الغزالي في تعريفه للحكم الخلقي قائلا: هو " تقدير العمل الخلقي تبعاً لخيرتيه وشريته على أساس ما ألفته ضمائرنا الدينية والخلقية من مبادئ الدين والأخلاق وقواعدها العامة" (أبو حامد الغزالي، ص41).

التذكير بقيم المجتمع، وصقل الفكر بمبادئ وقيم المجتمعات الإنسانية و الروحية، سيكون له وقع محمود على نفسيتنا في زمن المرض والموت من الجائحة، فلا شك لدينا بأن الإنسان يدرك الواقع والوقائع، ويكون عنها مجموعة من المعارف والتصورات، ويعي ماهيتها، ويقدر قيم الأشياء، ومع ذلك يحتاج فكره للتوجيه، لا سيما نحو اختيار الممكنات التي تعرض نفسها عليه، و المجال الفلسفي يمتلك خاصية العلوم التقديرية (المعيارية) ويستطيع تحديدها، فهو يوازن بين القيم التي تعلو على الواقع والوقائع، ويحذر من سيطر الواقع على الإنسان لكي لا يفقد إنسانيته ويصير حيوانا تجري عليه قوانين الطبيعة، وينبه هذا المجال من سيطرٍ الإنسان على الواقع وتشكيله كما يريد حتي لا يظن أنه صار إلهاً. (انظر رجب بودبوس،2007 ، ص172)

الواقع المنظور في أزمة كورونا لم يعد فيه ممكنا "الفصل بين الأجساد والأرقام، وبين أسرة الإنعاش والأجساد، وأجهزة التنفس الاصطناعية والملابس العازلة، والأقنعة الواقية، وفي ذلك ما يشير إلى أن سياسة الخوف تحولت اليوم إلى سلاح وبائي بعد أن اختزلت الدول الموبوءة الأجساد في مجرد مساحات للعدوى، وإن الرعب بات ينتقل إلينا زمن الوباء لا عبر الأجساد الحاملة للفيروس؛ بل عبر لغة الوباء أي عبر لغة الأرقام التي أصبحت شبيهة بلغة الأسهم في البورصات التي ليس لها أصول حقيقية، في لهجة تجمع بين الحتمية البيولوجية والتوبيخ الأخلاقي والسياسي" .(عبير، التميمي،www.youm7.com)

إنّ جائحة كورونا ستجبرنا على فتح مسالك جديدة في نهجنا التفكري؛ لإيجاد مخارج تخرجنا من دائرة البعد المادي الذي أحكم حياتنا في أطر المنفعة، وقيد حركة أفكارنا.

خطاب التهويل وزعزعت النفس:

مسألة التهويل في الخطاب الطبي و الإعلامي الخاص بجائحة كورونا مرتبطة بقيم التعامل الإنساني وسلوك البشر تجاه بعض الأحداث، ففي مثل هذه الجائحة تعدّ الإحصائيات اليومية المتعلقة بعدد المصابين والوفيات بجوار القول بعدم الحصول على العلاجات، أو محدودية اللقاحات الوقائية، أو ارتفاع ثمنها ، أو عدم الجدوة منها، مسألة تثير القلق والخوف، إنّ خطاب التهويل من المرض يعمل على الترهيب، وتعزيز الشعور بالخوف والموت معًا، وهذا يتطلب توعية ذهن الطبيب و الإعلامي بالمخاطر القيمية التي يحملها خطاب التهويل، ومدى تأثيره في النفس الإنسانية، فهناك من يعملون على تضخيم التكهنات من خلال تصريحاتهم للجمهور، في المقابل نجد من يشعر بالقلق من الأثر السلبي للتقارير العلمية؛ لأن لها تداعيتها النفسية والاجتماعية

(انظر، شيلدون كريمسكي وجيرمي غروبر، ص258)، فالإعلان عن بشاعة المرض وتهويله للناس ولّد قيمة الرعب والخوف في أوساط المجتمع، وهذه القيمة لها أثر بالغ في الانطواء على الذات؛ بسبب ضرورة الاحتراز من الاختلاط، والتأكيد على الابتعاد الجسدي، وربما يقود هذا الانطواء إلى الموت، وهنا يأتي دور المجال الفلسفي باعتباره أداةً من أدوات الوعي، ورافدًا من روافد تكوين الفكر الإنساني، فهو يهتم بقضايا الإنسان، وما يتعلق بها، لاسيما أن هذه القضايا في جوهرها قضايا أخلاقية، ذات نزعة إنسانية، فالإنسان هو القيمة القصوى التي يكتسب منها الوجود معناه، فوجب –إذن– معرفة ذلك، وضرورة إيجاد سبل نعمل من خلالها على تطوير الذات الإنسانية، وجعلها قادرة على استيعاب ما يترتب على هذه الجائحة من أضرار جسدية وذهنية.

قضية تهميش الدور المناط بالمجال الفلسفي بقصد أو من دون قصد غيب حقيقته وماهيته، وعلائقه بالعلوم الأخرى، فهو مجال قائم على بناء الفكر عن طريق إكساب من ينتهج نهجه مهارات التحليل والنقد بالحجة والبرهان، إنّه يعطي للمبادئ الإنسانية قيمتها، ويعمل وفق قضايا المجتمع بمعايير ومناهج خاصة به، تتميز عن أي مجال آخر، ومن بين هذه القضايا قضية الأثر القيمي لجائحة كورونا، فهي ذات صلة بالواقع، وتبين لنا أهمية الفكر الفلسفي في الإشارة إلى قيمة التصرفات والأفعال من الأشخاص المسؤولين تجاه مقاومة الآثار السلبية الناجمة عن الحالة النفسية للمريض ومن هم محيطون به.

إنّ الحجر الصحي وعزل المريض –على سبيل المثال– من المسائل الأخلاقية التي تحافظ على المجتمع، وتحدّ من انتشار المرض، ولكن هذه المسألة لها بعد قيمي آخر، متمثل في التعامل السلبي والسيّئ مع من حجر صحيًّا أو عزل سريريًّا من بعض أفراد المجتمع؛ لأن المسألة مرتبطة بقيمة الصحة، وقيمة الخوف، وقيمة الموت، فالقيمة الإيجابية للحجر يقابلها قيمة سلبية متعلقة بالتعامل مع الشخص المريض أو المخالط له، فهذه المسألة ذات صلة وثيقة بمسألة الوعي، وهذا يحتم على أصحاب المجال الفلسفي إعادة النظر في أسس التفكير الإنساني، وتفعيل آليات هذا المجال تجاه التوعية بمخاطر القيم السلبية على البنية الاجتماعية، في كون هذه السلبية تؤدي إلى قتل قيم التواصل والرحمة والتعاون والتآزر بين الناس، فالمجال الفلسفي يعمل على فك شفرة الريبة حول المسائل العارضة ومستجدات العصر، إنّ مسألة إعادة الثقة بين الناس في تعاملها اليومي يسهم في تثبيت القيم الإنسانية وبيان دورها في مجابهة المستجدات الطارئة.

الخاتمة:

عندما يعجز الذهن عن إيجاد حلول سريعة تجاه بعض القضايا الحادثة، لاسيما ذات العلاقة بمصير البشر مثل ما حدث في زمننا هذا الذي يواجه جائحة بنواحٍ إنسانية مختلفة ذات صلة بالأخلاق والقيم، فهذه الجائحة في الواقع جعلت من بعض العلماء والأطباء يتعدون الأطر الأخلاقية ويتجاوزونها عندما تخلّى البعض منهم عن أخلاقه المجتمعية نحو أخلاق المنفعة التي تؤمن بالبقاء للأصلح، واستخدموا في سبيل ذلك الأمصال القاتلة، ونزع أجهزت التنفس الصناعي من كبار السن وإهمالهم، ومنهم من تكاسل في إيجاد اللقاحات الوقائية أو العلاجية، وهناك من اشتغل على إيجاد فيروسات قاتلة مخلقة معمليًّا، كل هذا يجعل القوانين الوضعية والسماوية في حرج أمام عدم الالتزام بها في غياب سلطة المشرع الأخلاقية، في تصوري إن الردع ذاتي، ولا يأتي من خارج النفس الإنسانية، ومهمة القوانين والتشريعات الحد من مخاطر التطاول على قيمة الإنسان الوجودية، وهذا ما جعل بعض الفلاسفة في حيرة تجاه تحديد مفهوم الخيرية، هل هي نسبية أما مطلقة؟ إنّ هذا البحث في بنيته لم يتناول المسائل الطبية، بل أشار إلى ضرورة الحرص على قيمة الإنسان والوجود، فتجد فيه دعوة إلى التمسك بالمفاهيم والمبادئ والقيم الإنسانية، من خلال التذكير بالمجال الفلسفي القائم على الأخلاق، هذا المجال الذي أهمل الدور المناط به في الواقع المعيش بفعل السياسات الحكومية التي شوهت الدور التوعوي لهذا المجال.

قائمة المصادر:

- عبد القادر الجبائي، **ماذا حل بالفلسفة في العالم العربي**، شبكة المعلومات الدولية، (culture.elaph.com).
- اليوم العالمي للفلسفة، شبكة المعلومات الدولية، (ar.m.wikipedia.org).
- رجب بودبوس: **ما الفلسفة**، سرت، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1 ، 1424
- كارل ماركس، **مختارات من المؤلفات الكبرى 1842 – 1846م**، دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، ترجمة إلياس مرقص.
- ميشيل تورزي وآخرون، **بناء القدرات والكفاءات في الفلسفة**، منشورات عالم التربية، ط1، 2005. تقديم محمد سبيلا.
- فضل الله إسماعيل، **نماذج من المشكلات الفلسفية والاجتماعية والسياسية والقانونية**، الإسكندرية: مكتبة بستان المعرفة، ط1، 2004.
- بن عبد العالي عبد السلام ، **الفكر في عصر التقنية**، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2000.
- صلاح قنصوة، **القيم بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية**، مجلة الفكر المعاصر، العدد 59، القاهرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر، 1970.
- عادل العوا: **العمدة في فلسفة القيم**، دمشق: للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1986.
- عبير عبد الرسول التميمي، **الوعي الفلسفي والنفسي زمن كورونا**، شبكة المعلومات الدولية (www.youm7.com).

- يمني طريف الخولي، **فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول، الحصاد، الأفاق المستقبلية**، سلسلة عالم المعرفة، العدد 264 ، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2000 م.
- Adel Dellal : **دعاوى قضائية بسبب الوفيات الكثيرة على مستوى دور رعاية المسنين في فرنسا** (https://arabic.euronews.com)
- أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، القاهرة، مكتبة محمد علم صبيح،1956 الجزء الثالث.
- رجب بودبوس، **مواقف 15**، طرابلس، اكاديمية الفكر الجماهيري، ط2 ، 2007 .
- زكريا إبراهيم، **مشكلة الإنسان**، القاهرة، دار مصر للطباعة، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- مايكل زيرمان: **الفلسفة البيئية**، سلسلة عالم المعرفة، العدد332، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،2006 ، ترجمة معين شفيق روسية.
- شيلدون كريمسكي وجيرمي غروبر، **تفسيرات وراثية المعقول واللامعقول**، سلسلة عالم المعرفة، العدد 432، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016 ، ترجمة ليلى الموسوي.

The Coronavirus Pandemic and Human Values: A Study in The Field of Philosophy

Dr: Mahmoud Mohammed Almadi Alabeed

Abstract:

Values are considered modern-day problems due to what humanity goes through from disasters and scourges. These disasters include the Corona pandemic, which put humanity in a critical and embarrassing state, and as a result of some attitudes towards fighting the disease, people became confused as to what should be done and what should not,. In addition to the intimidating speech and over-dramatizing of the media which accompanied this pandemic.

This research came as an awareness raiser on the significance of Philosophy in these universal disasters, to show how this field works on establishing, cherishing and emphasizing work ethics especially in the medical field.

The call for establishing values in a time when humans hold sacred material things and forsake respecting the value of spirit is something of great importance.

The act of enhancing, emphasizing and providing insight to human values in order to resist some negative behavior found in the Medical field will contribute to preserving the existential value of the human being.

We try to elicit the stand and attitude of the field of Philosophy towards this troubled world filled with scientific revolutions and events that are relevant to human values.

The reference to human values is key to identifying the pathway of medical ethics under the continuous and fast elevation in the field of Medicine and Biology, as the development in this scientific field threatens values and causes confusion in knowing its standards, levels, and authenticity.

Therefore, there are problems regarding the ethical side we must acknowledge and we must emphasize committing to human values and principles defined by humanity through religious and legal different covenants.

Key words: Corona, field, over-dramatizing, values